فلسفة خطاب الإعلام العربى
بين التبرير والتغيير

أ . د. محمد إبراهيم الفيومى
عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية الأسبق
جامعة الأزهر

يلعب الإعلام المعاصر – من خلال وسائل الحضارة التكنولوجية المتعددة – دورا مهما ، أكثر من أى عصر مضى، فى تكوين أفكار الناس، وتحريك عواطفهم، وتوجيه حياتهم ، وتشكيل عقائدهم ولقوته العظمى يؤثر على أسلوب حياتنا، ومعيشتنا، وعلى أفكارنا السياسية، وعلى أخلاقنا بل وعلى مصيرنا .

من هنا : يقع الإنسان المعاصر، تحت وطأة وسائل الإعلام وشراستها، فأينما يكون توجيهها تكون وسيلته، فهى التى تحرره إن كانت حرة فى اتجاهاتها، وهى التى تستعبده وتسخره إن كانت استبدادية النزعة. لذلك كانت وسائل الإعلام هى عنوان الأمم وعنوان رقيها وتحضرها، وهى السفير المعتمد الذى يرسم وسائل الاتصال بين الشعوب.. وبين الدول ومواطنيها.. ويقيم علاقاتها برباط شديد أواصره، من الوطنية والأخلاق والدين . ولا نجد وسيلة أقوى وأشد فعالية فى وحدة الأمة من الإعلام، فبه تلتقى الإنسانية على صعيد الحكمة، لذلك يجب أن تكون الكلمة مؤسسة على أشرف المبادئ وأسماها، تلتقى لقاء إنسانيا، لا يعكره ما صنعته الظروف من الحواجز المصطنعة، تنوب فيه الإقليمية، والجغرافية، والعنصرية، والمذهبية، وبه أيضا تتعرف الشعوب على مجريات الأحداث أينما كانت ، وعلى ثقافاتها ، وخصائصها، ومتطلباتها، ومشاكلها وتغيراتها .

لذلك تدرك الأمم الحية الراقية أن نهضتها، وبعثها الحضارى، ورفعة شأنها بين الأمم تتوقف على وسائلها الإعلامية، وعلى نوع ما تقدمه للأمة، وأفرادها، فهناك نوعان من الإعلام :

نوع من الإعلام؛ يساعد الأمة على بناء شخصيتها حضاريا وثقافيا – من خلال ما يقدمه لها من نماذج حضارية، وتاريخية، فيربى فيها القيم الفاضلة، والعادات الحسنة، فيزودها بعظيم القيم الأخلاقية من الوفاء والصدق والإخاء، والأمانة فى المعاملات، والانضباط فى العمل ، وتقديس الوقت واحترامه، ويعينها على التفتح الذهنى الذى يعى المتغيرات الحضارية والثقافية، وينمى فيها حاسة التذوق الجمالى.

و نوع من الإعلام؛ يعمل على صنع جيل، بمايقدمه من نماذج سيئة يشوبها التبعية، والانتهازية فيصنع جيلا متكاسلا، لا يبالى بالحياة، ولا بالقيم، مهزوزا متوترا غير واثق من نفسه، يفضل أن يكون تابعا لغيره، عالة على مجتمعه؛ اقتصاديا، وسياسيا، غير واع لظروفه الحضارية ولا متغيراتها، لا يحسن إنتاج شىء ، يتقلب مع الهوى، لا يثبت على رأى، يجرى وراء كل ناعق .

من هنا : أطرح قضية خطاب الإعلام العربى الإسلامى، إذا أردنا تحضرا وحضورا للإنسان العربى على الساحة العربية والدولية، وأردنا الخروج مما وقعنا فيه، تحت وطأة ظروف

استثنائية فرضت علينا لونا من ثقافة، ونمطا من سلوك، تخدم أهدافا غير أهداف الأمة وتصنع مجتمعا تعلوه الذلة، والاستكانة، يسلم قيادة نفسه لغيره حتي تروضه لقابلية الوصاية والتبعية .. ويصبح أداة طيعة تلعب به نزوات الحكام. من هنا وقفنا بين فلسفتين :

فلسفة الذين يستمدون تزييفهم من قراءات مشوهة للتاريخ؛ إنه لا سبيل إلى التحضر والنهضة الإصلاحية، ومن تلافى الظروف الاستثنائية التى وقعت فيها الأمة العربية إلا إذا خف ضغط القوى العالمية التى تريد لشعوب العالم الثالث أن تكون كذلك، وقادهم تأويلهم المتعسف لأحداث الخمسينيات والستينيات .. حين بدأت الثورة فى بداياتها الأولى بالميل نحو الاعتماد على النفس، حين أعلنت مبادئها الإصلاحية.. ومن أهمها ضرب الاستعمار.. وإقامة حكم وطنى ديمقراطى .. الخ

أدت تلك المحاولات الاستقلالية كما يذهب أصحاب فلسفات التبعية إلى الاصطدام بالقوى الخارجية صاحبة المصلحة فى المنطقة العربية التى خشيت على مصالحها وبسبب ذلك تعرضت الأمة لتلك النكسات المتكررة والخطيرة، فأحدثت شرخا فى كيان الوطن والأمة والشخصية .. واتخذ تيار التبعية الجارف الذى أخذ يشيد بفلسفة التبعية متخذا من ذلك الاصطدام وزعزعة الثقة فى الاعتماد على النفس ، وعدم جدوى التحدى ، والميل إلى المهادنة .. لذلك أرفض مثل تلك الفلسفات التى تربى فى الأمة العجز، وتغيب الأمة عن وعيها وتعفيها عن تحمل مسئولياتها أمام الله والوطن والتاريخ .. وبدلا من تدعيم فلسفة الاعتماد على الذات لمواجهة قصورها وتقصيرها .. تشيع بين الأمة، زعزعة إيمانها بالتحدى مفضلة عليه الميل إلى المهادنة .

وإذا تفشى هذا الشعور فى جسد الأمة المناقض للشعور بتحمل المسئولية، تنشأ علتان خطيرتان فى جسد الأمة إحداهما : العجز وضعف النفس... وثانيهما : عدم الوعى وسوء الإدراك ولا شك أن التهرب من المسئولية الذاتية والتمادى فى إلقاء التبعة على الآخرين من أسوأ الأمراض الاجتماعية .. فما أكثر ما نجد أبناء المجتمع العاجز يشتكون من كل شيء إلا من أنفسهم، ويحملون على الشعوب الخارجية، والنظام والحكومة والطبيعة وكل ما عداهم ناسين، أو متناسين قسطهم من المسئولية ونصيبهم من التبعة وهذه النزعة إذا استفحلت استفحل معها قصر النظر، وخداع النفس والجبن، والتخاذل وعملت على ترسيخ العجز ومضاعفة شروره، فى حين أن الحاجة الماسة هى النهوض منه والتغلب عليه.

فمصدر العلتين : هو : " اللامسئولية " ومعالجتها تكون بالجهد الدائب لتنمية روح الانضباط والعدالة فى النظر والفكر والسلوك، والتروض على استقصاء التبعية الذاتية وتحمل أعبائها، وهو ضيق شاق ولكنه الضيق الواجب اتباعه إذا أراد الفرد أن يحقق قابلياته

التحررية، وأراد المجتمع أن يحرز القوة والقدرة والكرامة حتى لا يكون ملهاة للعبث به، على الساحة الدولية فلا سبيل أمامه سوى أن يتحمل مسئوليته أمام التاريخ نتيجة غفوته. وتلك قوانين التاريخ التى لا يوجد فيها عطاء دون جزاء أبدا .

لذلك أرى أن إعلامنا العربى مطالب باجتياز هذه العقبات وتلك الفلسفات وقبول التحدى التى أفرزتها التحديات والأحداث التاريخية والتغييرات الدولية حتى تأخذ الأمة العربية مكانتها القومية والدولية فى إطار صبغة من صبغ التوحد إذا أردنا أن نحتل مكانتنا الدولية فى إطار النظام العالمى الجديد .. وإلا سوف نغدو أمة مشتتة موزعة لا نملك من أمر أنفسنا شيئا تتحكم فينا وفى مصيرنا ومصير أجيالنا قوى التحكم فى توجهنا وتوجهاتنا فلا خلاص لنا إلا إذا قمنا بترتيب بيتنا العربى وتفهم همومه وتحديد مهامه وتمسكنا بفلسفة التحدى فبها نكون أو لا نكون.

وإننى أضع أمام الخطاب الإعلامى العربى تلك المهام القومية والإسلامية لفلسفة التحدى الحضارى إذا أردنا أن نمهد لإحياء التضامن العربى على شكل إيجابى فعال :

الأولى : الدعوة إلى إلغاء التميزات الإقليمية :

ظهرت التميزات الإقليمية، التى هى فى الأصل مناطق نفوذ للاستعمار، فى الوقت التى كانت الساحة الإسلامية تزخر بالدعوات الإصلاحية لوضع تخطيط جديد يجمع شمل العرب يتفق ومقتضياته المعاصرة، فدعا بعضهم إلى فكرة الجامعة الإسلامية، وبعضهم إلى فكرة الجامعة العربية.. ولم تذهب تلك الدعوات أدراج الرياح، وإنما تمت تلك الأفكار تحت فكرة التضامن العربى التى تمخضت فى الأربعينيات عن مؤسسة الجامعة العربية وميثاقها، وكان ذلك قبل أن تتخذ الأمم المتحدة طريقها إلى الوجود.

وكنا نتوقع من الجامعة العربية أن تسمو بمفهوم التضامن العربى من الشكل إلى المضمون السياسى، والثقافى والاجتماعى، الذى يبين عن أمة عربية تتحدث عن تاريخ مشترك، وجامعة إسلامية واحدة، وتاريخ ثقافى واحد لكن التميزات الجغرافية التى رسمتها السياسة الاستعمارية إبان تصارعها حول توزيع " تركة الرجل المريض " ثم تصالحت على توزيعها فيما بينها تحت اسم استعمارى كريه " مناطق نفوذ" من ذلك اليوم أصبح لكل دولة استعمارية منطقة نفوذها فى الشرق الأوسط، قضت هذه التميزات على وظيفة الجامعة العربية، وعلى نمو فكرة التضامن العربى وعاقتها عن أن تتطور إلى وعى كامل بها، وأتاحت الفرص لكل دولة على تنمية الفروق بين النزعات القبلية، والخصائص المحلية للظهور، كاللهجات اللغوية، والعادات والتقاليد حتى المذهبية البيئية تمت على حساب وحدة الكيان العربى الإسلامى الفكرى والعقلى. فهل من الممكن أن يتكفل الخطاب الإعلامى العربى بأن يذيب فوارق تلك الإقليمية ؟

الثانية : تطويع المزاج العربى لقابلية المؤثرات الحضارية :

كان من الطبيعى أن ينتج من التميزات الإقليمية عدم وحدة الميول إلى التقبل الحضارى وعدم قابلية صبغة عامة للفكر، فهذا يحب لونا من الفكر، وذاك يفضل لونا آخر، وثالث ينظر إلى الإعلام من حيث بيئته المذهبية.. ولا شك أن ذلك التعدد وذاك التباين فى الفكر أدى إلى سريان موجة الاندفاع إلى الدفاع عن الأوضاع الثقافية وفقا لتمايزات الإقليمية وميولها، ومذهبيتها الدينية، ويرافق الدفاع عادة هجوم شرس من جانب آخر ، على الحرية الثقافية، وعلى الرؤية الحضارية الإسلامية الواسعة التى لا تلتزم بالمذهبية الدينية البيئية، وقد يوهم تعدد ألوان الفكر على الساحة الثقافية بوجود حرية ثقافية لأنه فكر يحمل طابع التميزات الإقليمية، يضل ولا يهدى، يشتت ولا يجمع، واشتغل بقضايا التجزئة الإقليمية ومحسناتها المحلية، ولم يستطع أن يؤهل ذاته لحمل رسالة الأهداف القومية والإسلامية التى نكن لها أعظم التقدير وأجل الأمانى .. والتى إذا ما ظهرت على الساحة لا تلقى إلا صمتا يحمل معنى السلبية الأليمة والانسحاب فى هدوء، وحسبنا أن نغطيها بأغطية التكافل وكأنها دعوة تائهة فى أرض الغربة، لتظل الساحة الفكرية غاصة بالأنماط الثقافية الإقليمية مع أنماط النظم المحلية، وتظل الساحة تزخر بلغو فكر محلى جدا غير قابل للتطور، وغير قابل للتفاهم معه أو حتى تفهمه، وكأنه عملة أهل الكهف، غير قابل للتعامل.. تسوده نزوات انفعالية ملىء بالفحش والتنابز.. صيغته العامة : الصراع مع كل فكر له أهداف قومية عليا، إقليمى يحمل عصبيات إقليمية .

... تلك هى مهمات الفكر العربى، تقع بين قيم إقليمية متناقضة .فإذا ما أرادت الأمة العربية أن تنهض نهضة حقيقية وترفع من شأنها بين الأمم، ويكون لها خطرها، فلا سبيل إلا بصحوة الخطاب العربى الإعلامى لينبهها إلى سبيل التوحد الحقيقى بأى شكل من أشكال التوحد المعروف فى النظم السياسية، ولتكن صيغة التوحد كما تكون حتى تعمل على تدارك الأزمات كما حدث فى أزمة الخليج، ويقى الأمة من النزعات الفردية، ونزعات التسلط، ونزعات التآمر الغادر .. ولا يتم ذلك إلا بالمصالحة بينها وبين صيغ العصر الحضارية، والمفهوم الإسلامى للأمة الإسلامية. فهل من الممكن أن يتكفل الخطاب العربى الإعلامى تلك الرسالة فى تنمية وحدة الميول لتقبل التوجهات الحضارية ؟

الثالثة : الإسلام والعروبة وجهان لحضارة واحدة :

يشيع على الساحة الفكرية نوع من الضلال الثقافى الذى تشيع أنماطه فى عصرنا بين طائفة من المثقفين، كثيرا ما يفتعلون نقاشا غير مجد سوى قضايا أساسية صاغت تاريخنا

وحضارتنا، وليس ذلك فحسب، بل هى التى صنعت هوية الإنسان العربى وصاغت سلوكه وقيمه وما تزال، ومن لغوهم ما يثيرونه من جدل مفتعل، حول :" قضية الخيار بين الإسلام والعروبة ".. وكنا نرى فى ذلك الجدل لغوا وتزييفا لا طائل من ورائه سوى العبث فى شئون الثقافة وشئون الفكر والتاريخ .. فمتى كان الإسلام ضد العروبة ؟ ومتى كانت العروبة ضد الإسلام ؟ ومتى كان التوحد الإسلامى يعمل ضد العروبة ؟ . ومتى كانت الوحدة العربية تعمل ضد الإسلام ؟.

فمن الضلال الثقافى أن ترى أمر الإسلام بيننا بات محل نقاش فى تأصيل الوحدة العربية. ومن العجب أن تلقى الثقافات الوافدة استقبالا عظيما وتوقيرا لدى دعاتها الذين يدعون إليها ولا يرضون لأنفسهم وصفا إلا وصف أنفسهم براود التنوير، وهم فى حقيقة الأمر ليسوا إلا مقلدين، فاتخذوا معيبات التبعية مزية ثقافية.. ومن مزيتنا الحضارية، معيبات ثقافية، يجوز حولها النقاش والجدل، فلا إسلام من غير عروبة، ولا عروبة من غير إسلام، كيف تحدث جدلا حول مزية العربى الثقافية والحضارية فأين كان العربى قبل الإسلام ؟ وأين العرب الآن ، بعد ما غابوا أو غيبهم الاستعمار عن الإسلام .

لا شك أن الفصل بينهما لعبة استعمارية بغيضة، تريد أن تضرب الوحدة الروحية فى صميمها، فيبوء قوم باسم الإسلام، ويبوء آخرون باسم العروبة. وتقسمنا الطائفية من جديد . ولكن بشكل مر وأليم، وهذا بلا شك تآمر على الإسلام قبل أن يكون على العروبة وعدم وعى بهويتنا وتاريخنا، فليس من المعقول أن نضع الإسلام أمام خيار العروبة، وليس من المعقول أن نضع العروبة أمام خيار الإسلام .

إننا فى حيرة شديدة من تفجير قضية العروبة والإسلام وانقسام المفكرين حولها .. إنها غربة عانى منها المجتمع وعانت منها الوحدة الثقافية حين عصفت بها تيارات الأعاصير .. فهل من الممكن أن يتكفل الخطاب الإعلامى العربى برفع تلك الغشاوة عن أعين المثقفين ليعيد إلى الأذهان عوامل انصهار الوحدة العربية ويقيم شأن التضامن الإسلامى ؟

الرابعة : الإسلام .. لا العلمانية :

لا شك أن ما نعيشه على الساحة الثقافية ليس جدلا فى جدل كما يبدو للبعض أن يصوره ليس الأمر كذلك، إنما هم يبغونها عوجا، يبغون من ورائها تمهيدا يهيىء المضمون الثقافى ليتقبل النشاط العلمانى، الذى يضع الدين موضع الجدل والنقاش، وتلك صورة تكونت لدى الداعين إليها منذ عصر التنوير وموقفهم من الدين والدولة.. ففصلوا بين الدين والدولة وقالوا : مقولة السيد المسيح : ما لقيصر لقيصر، وما لله لله .. بينما الدين الإسلامى ليس فيه مثل هذا النص،

وليس هو ذاته سمح لوضع شأنه كوضع كهنة أوروبا فالبون بينهما شاسع لقد استبد الكهنة بشئون المجتمع الأوروبى باسم الدين فصادروا المعرفة التى تؤدى إلى البحث عن الحقيقة، وحجرت على العقل من أن يفكر إلا فيما أباحته الكنيسة وصادرت حرية العلماء فيما أرادوا التفكير فيه حتى النظر فى الكتاب المقدس حرمت تدواله فيما بينهم .. وغير ذلك كثير مكنها من هيمنتها على المجتمع وارتكبت ألوانا من المخالفات التى لا يرضى عنها الدين ولا القوانين الوضعية العادلة فكم أذلت وأحرقت وشردت أناسا لم يرتكبوا جرما سوى أنهم أرادوا أن يمارسوا حرية التفكير.

من هنا كانت سيطرة الكهنة واستبدادهم بشئون المجتمع من أهم أسباب قيام الثورة عليها فى أوروبا .

من هنا تبنت أوروبا الحديثة العلمانية نظاماً لها إلى التنوير وأقامتها على أسس ليس الدين منها وهى :

- النظرة المادية القائمة على منهج التجربة فى دراسة العالم الطبيعى.
- استبعاد المعرفه غير المادية .. وعزو القيمة الحقيقية فى المعرفة إلى الرؤية العلمية القائمة على المنهج الحديث .
- تعميم النظرة المادية والتفكير المادى على كل شئون المجتمع حتى القيم الأخلاقية .. أن تخضع العلاقات الإنسانية لمجموعة مبادئ الفلسفة المادية ..

وكان من أكبر جنايات العلمانية : أن سيطرت السيادة المادية على الإنسان والفكر، تحول مفهوم الإنسان من مفهوم له أبعاده الدينية والأخلاقية إلى كتلة مادية قابلة لعمليات التغيير والتشكيل، ومن إنسان له عقله وروحه ووجدانه إلى كتلة مادية صماء عمياء تعبث به الفلسفات .

إن العلمانية هى سيادة المادية على المجتمع البشرى، وإقصاء كل ما هو إلهى لتحل محله الفلسفة المادية بكل مذاهبها بدلا من سيطرة الدين .

وليس معنى مكافحتنا العلمانية، أننا نكافح العلم أو النظرة العلمية، وليس الأمر كذلك لأن العلم هو التجريب فى مجال الطبيعة وذلك يدخل فى نطاق التفكير البشرى، وتلك نظرة عادلة ومستقيمة وناضجة بل وضرورية، ما دامت محصورة فى مجالها التطبيقى الطبيعى فهذا ملحظ مهم ويجب التنبيه عليه، ولا نختلف فيه ولا عليه ولا نقبل التشويش به على دعاة الإصلاح ، وعلى كل من يحارب العلمانية .

ومعنى أن تسيطر العلمانية على المجتمع الإسلامى أن تقوم الدولة على غير أساس من الدين، لا شك أنها اتجاهات تنم عن حالة صراع فى الفهم عميقة، تفصم الإنسان العربى عن إسلامه فهو يود أن يوازن بين معتقده الإسلامى الذى يود أن يعيش به حضارته وبين

صبغه بالحياة ذات النمط الغربى فهو بين ضياع تاريخى .

فهل من الممكن أن يتكفل الإعلام بحمل مسئولية التأكيد على خصائص الأمة . وأن الإسلام هو أهمها وفيه حياتنا ؟

الخامسة : التصالح بين الرأى السياسى والرأى الفكرى :

مازال الفكر العربى يعانى حالة الانفصام التى بينه وبين المؤسسة السياسة . فالرأى السياسى فى جانب وهو المسيطر .

. والرأى الفكرى فى مقابله وهو المنبوذ، وليس منبوذا فقط بل يعتبر فى نظر الرأى السياسى خارجا على حدود الشرعية، وقابلا لوصفه بالتطرف، وقت الضرورة، فهو أحق بالمنازعة، والرفض، والتتبع بالتشنيع عليه وعلى صاحبه.

مازال الرأى السياسى فى الوطن العربى، يهاب تعدد الآراء، مع أن تعدد الآراء يعبر عن رؤى ثقافية متعددة تصنع مساحة ثقافية مشتركة تتلاقى حولها الآراء والأفكار التى تساعد على صنع القرار الذى يخدم الوطن والمواطن، وتهيئ الأذهان لتقبله بحرية وقابلية .

تعمل قابلية القرار المبنى على المشورة والشورى، على توجيه المواطن إلى تبنيه الدعوة إليه والقناعة به، وتلك هى المساحة الثقافية المشتركة بين صانعى القرار، وأطراف الأمة المشتركة فى المصالح القومية، فضلا عن أنه يصنع جوا من الحرية التى تصنع المصالحة بين الرأى السياسى والرأى الفكرى القومى .

من هنا : كانت أزمتنا أننا نهاب الآراء المتعددة خوفا من صراعها، مع أنه من الممكن أن تصنع المؤسسة السياسية الإطار العلمى النزيه الذى يضمن لها تفاعلها الحر النزيه، إذ ليس ميثاق وصاية على الحقيقة.فالله وحده هو مالكها، فكل إرهاب يقع على كل رأى غير السياسى فهو يصنع تمزقا وتمزيقا بين وحدة الفكر ويصيب الولاء القومى بالازدواج .

ولقد شاهدنا من خلال أحداث الخليج، أن الغرب يحرص دائما أن ينطلق الفكر العربى من الفكر السياسى قد يتآزران وقد لا يلتقيان.. ومن خلال ذلك الجدل الفكرى والحوار السياسى تتهيأ الأذهان لأبعاد القضية من حيث زواياها وجدواها ونتائجها. وتخرج القرار وله سنده الفكرى وشرعيته السياسية والقومية.. ولم تكن شرعية القرار السياسى مسوغا لإعلان الوصايا على الرأى المخالف، أو إرهاق المخالفين بتهم الخروج على الشرعية أو مدعاة لوصفهم بالتطرف الفكرى.

ولن تتأثر الوحدة الحقيقية بين القرار السياسى والرأى الفكرى فى دارنا العربية إلا بإتاحة الحرية التى تصنع نفسها وتصوغ المواطن فى قالب الانتماء القومى وتطبيق مبدأ الشورى

الإسلامى الذى يصنع إطار الوحدة القومية .

لقد أدى الانفصام بين القرار السياسى، والرأى الفكرى إلى علاقة متوترة قائمة على الخوف والحذر المفرط إلى تفاقم مشكلات الاغتراب لدى المثقفين المخلصين لثقافتهم لاستبعادهم عن صنع القرار، وعزلهم عن المشاكل الفعالة فى توجيه الحياة الفكرية ما لم يكن الفكر تبريرا لمتطلبات السلطة الحاكمة .

من هنا أحس أهل الفكر بمشاعر الاغتراب تحتويهم من فرط إحساسهم، بأن قمع السلطة جعلهم يعيشون على هامش مجتمعهم، وليس من ذنب اقترفوه فى حق مجتمعهم سوى أنهم أخلصوا لفكرهم والوطن والوطنية. كذلك أدى الانفصام بين الرأى السياسى، والرأى الفكرى، إلى شيوع قضية التطرف ..

فهل من الممكن أن يتكفل خطاب الإعلام العربى بالتصالح بين الرأى الفكرى والقرار السياسى ؟

السادس : التضليل الثقافى والإعلام الغربى

يعزى الإعلام الغربى انتصاراته فى الميادين السياسية، والعسكرية، والثقافية، والحضارية إلى العلمنة؛ لذلك جند أجهزته الإعلامية للدعوة إليها بما ألبسها لبوس العلم، وصبغها بمظهره، فى الوقت الذى صور فيه الدين على أنه أمر شخصى، لا شأن له بالحياة والمجتمع ابتغاء فصله عن توجيه الحياة .

وكان هدفه من وراء ذلك هو : إذابة الشخصية الإسلامية، وإلغاء خصائصها الذاتية. ولا يبقى سوى أمة ممسوخة الهوية، مشوهة التاريخ، ولقد لعب الإعلام الغربى دوره فى إقامة صراع محتدم كما رأينا؛ بين العروبة والإسلام .. ولا شك أن ذلك هو الضلال الثقافى بعينه وذلك حين قابلنا بين المسألة الدينية والمسألة الثقافية .. فهل هى مساومة ثقافية، أو مساومة دينية . أم هو عين التآمر على الإسلام والعروبة وعلى التاريخ ....

ولقد استمد الإعلام الغربى رسالته تلك من صورتين :

صورة وضع ملامحها أكاديمية الاستشراق الأولى حين كانت فى مواكبة الاستعمار .

وصورة رسمتها العلمانية المناهضة للإسلام .

وكان من أثر تغلغلها أن أيقن المجتمع الإسلامى أن الصراع ليس بين العلمانية والإسلام إنما هو بالدرجه الأولى صراع من أجل السيطرة الغربية على شخصيات الشعوب صراع بين تحقيق الذات الإسلامية والعربية وبين إلغائها ولقد استطاع الإعلام الغربى من خلال حملاته الإعلامية أن ينفذ مخططاته بين مستويات الأمة الثلاث :

. مستوى الأمة .

. مستوى القادة .

. مستوى مفكريه .

أما بالنسبة للأمة فلقد استطاع من خلال حملاته الإعلامية المنظمة أن يشوه الإسلام وأن يباعد بينه وبين الأمة وإسلامها حتى أصبحت لا تعى منه إلا رسمه .

وأما القادة : فهم فى صراع بين ما يتوجهون إليه من أيدلوجيات ذات انتماءات مختلفة وبين أمانى شعوبها فى تطبيق الإسلام وهو مطلب نكن له أطيب المنى .

وأما المفكرون : فلقد تقطع أمرهم بينهم شيعا تقاسمتهم الفلسفات ، وتنازعوا أمرهم بينهم وكل منهم يطلب مذهبا يخالف ما عليه قومه .. ويضيف به صراعا جديدا إلى صراعات الأمة المتعددة بينما توحيد الأمة لا ينبع إلا من وحدة الفكر .

وبعد :

فلقد استحضر الرسول ﷺ تلك الصورة التى تردى إليها المجتمع الإسلامى حين قال :

يوشك أن تتداعى عليكم الأمم، كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها .

قالوا : أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟

قال : لا ، بل أنتم أكثر ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور أعدائكم المهابة منكم، وليقذفن فى قلوبكم الوهن .

قيل : وما الوهن يا رسول الله .

قال : حب الدنيا وكراهية الموت .

تركز حديث الرسول ﷺ على أن فلسفة التغيير تنبع أساسا من إرادة الإنسان أو هى إرادة إنسانية قبل كل شىء مهما تقدمت وسائل الحضارة .. فدائما يبقى العنصر البشرى هو الأساس فى عملية التغيير والبناء .. قال تعالى :

﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾

وتلك هى مسئولية الإعلام فى توحيد توجهات الأمة فى مرحلته الجديدة وذلك هو الشرط الأساسى لنهضة الأمة العربية والإسلامية والخروج مما وقعت فيه الأمة من أمراض اجتماعية وتكاسل وتدهور وتفئ إلى إسلامها الصحيح، وفهمه فهما رشيدا واعيا ، ويترابط إيمانها بسلوكها وقولها وبعملها .